سورة الشعراء

١ـ اشتهرت عند السلف بسورة الشعراء؛ لأنها تفردت من بين سور القرآن بذكر كلمة الشعراء، وكذلك جاءت تسميتها في كتب السنة، وتسمى ـأيضاًـ سورة طسم.

وفي أحكام ابن العربي أنها تسمى ـأيضاًـ الجامعة، ونسبه ابن كثير والسيوطي في الإتقان إلى تفسير مالك المروي عنه[١].

ولم يظهر وجه وصفها بهذا الوصف، ولعلها أول سورة جمعت ذكر الرسل أصحاب الشرائع المعلومة إلى الرسالة المحمدية. ١٩/٨٩

٢ـ **وهي مكية**، فقيل جميعها مكي، وهو المروي عن ابن الزبير، ورواية عن ابن عباس ونسبه ابن عطية إلى الجمهور، وروي عن ابن عباس أن قوله ـتعالىـ: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ ﴾ إلى آخر السورة نزل بالمدينة؛ لذكر شعراء رسول الله ﷺ حسان بن ثابت وابن رواحة وكعب بن مالك، وهم المعني بقوله: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ الآية.

ولعل هذه الآية هي التي أقدمت هؤلاء على القول بأن تلك الآيات مدنية.

وعن الداني قال: نزلت ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ ﴾ في شاعرين تهاجيا في الجاهلية. ١٩/٨٩

٣ـ **وأقول**: كان شعراء بمكة يهجون النبي ﷺ منهم النضر بن الحارث، والعوراء بنت حرب زوج أبي لهب ونحوهما، وهم المراد بآيات ﴿ وَالشُّعَرَاءُ

---

١ ـ تفسير مالك بن أنس، ذكره عياض في المدارك، وذكره الداودي في طبقات المفسرين.

يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ ﴾.

وكان شعراء المدينة قد أسلموا قبل الهجرة وكان في مكة شعراء مسلمون من الذين هاجروا إلى الحبشة ٨٩/١٩

٤ـ وهي السورة السابعة والأربعون في عداد نزول السور نزلت بعد سورة الواقعة، وقبل سورة النمل. ٩٠/١٩

٥ـ وقد جعل أهل المدينة وأهل مكة وأهل البصرة عدد آيها مائتين وستاً وعشرين، وجعله أهل الشام وأهل الكوفة مائتين وسبعاً وعشرين. ٩٠/١٩

٦ـ **الأغراض التي اشتملت عليها:** أولها التنويهُ بالقرآن، والتعريضُ بعجزهم عن معارضته، وتسليةُ النبيﷺ على ما يلاقيه من إِعْراضِ قومه عن التوحيد الذي دعاهم إليه القرآن.

وفي ضِمْنِهِ تهديدُهم على تَعَرُّضهم لغضب الله ـتعالىـ وضربُ المثل لهم بما حَلَّ بالأمم المكذبةِ رُسُلَها، والمُعْرِضَةِ عن آيات الله.

وأَحْسِبُ أنها نزلت إِثْرَ طلبِ المشركين أن يأتِيَهم الرسولُ بخوارقَ؛ فافتتحت بتسلية النبيﷺ وتثبيتٍ له، ورباطةٍ لجأشه بأن ما يلاقيه من قومه هو سنةُ الرسل من قبله مع أقوامهم مثل موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب؛ ولذلك خَتَم كلَّ استدلال جيء به على المشركين المكذبين بتذييل واحد هو قوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تسجيلاً عليهم بأن آيات الوحدانية، وصدقَ الرسلِ عديدةٌ كافيةٌ لمن يتطلب الحق.

ولكن أكثرَ المشركين لا يؤمنون، وأن اللهَ عزيزٌ قادرٌ على أن يُنْزِلَ بهم العذاب، وأنه رحيم برسله؛ فَناصِرُهم على أعدائهم.

قال في الكشاف: «كلٌّ قصةٍ من القصص المذكورة في هذه السورة كتنزيل برأسه. وفيها من الاعتبار ما في غيرها؛ فكانت كلُّ واحدةٍ منها تُدْلي بحقٍّ في أن تختم بما اخْتُتِمت به صاحبتُها، ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس، وكلما زاد ترديدُه كان أمكنَ له في القلب، وأرسخَ في الفهم، وأبعدَ من النسيان، ولأن هذه القصصَ طُرِقَتْ بها آذانٌ وَقَرَتْ عن الإنصات للحق؛ فَكُوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير؛ لعل ذلك يفتح أذناً، أو يفتق ذهناً» اهـ.

ثم التنويهُ بالقرآن، وشهادةُ أهل الكتاب له، والردُّ على مطاعنهم في القرآن وجعلِه عضين، وأنه منزهٌ عن أن يكون شعراً ومن أقوال الشياطين، وأمر الرسول ﷺ بإنذار عشيرته، وأن الرسول ما عليه إلا البلاغ، وما تخلل ذلك من دلائل. ١٩/٩٠-٩١

٧- **والخُلُق في اصطلاح الحكماء:** مَلَكَةٌ أي كيفية راسخة في النفس، أي متمكنة من الفكر تصدر بها عن النفس أفعال صاحبها بدون تأمل.

فَخُلُقُ المرء: مجموع غرائز -أي طبائع نفسية- مؤتلفة من انطباع فكري: إما جِبِلِّي في أصل خلقته، وإما كَسْبِيٌّ ناشئٌ عن تمرُّن الفكر عليه، وتقلده إياه؛ لاستحسانه إياه عن تجربةِ نَفْعِهِ، أو عن تقليد ما يشاهده من بواعث محبة ما شاهد.

وينبغي أن يسمى اختياراً من قول أو عمل لذاته، أو لكونه من سيرة من يحبه ويقتدي به، ويسمى تقليداً، ومحاولته تسمى تخلقاً، قال سالم بن وابصة:

عليك بالقصيد[1] فيما أنت فاعله ... إن التخلُّقَ يأتي دونه الخُلُقُ

فإذا استقر وتمكن من النفس صار سجية له يجري أعماله على ما تمليه عليه،

١ - هكذا في الأصل، ولعل الصواب: «بالقصد» لأجل استقامة الوزن والمعنى. (م)

وتأمره به نفسه بحيث لا يستطيع ترك العمل بمقتضاها، ولو رام حمل نفسه على عدم العمل بما تمليه سجيته لاستصغر نفسه وإرادته، وحقر رأيه.

وقد يتغير الخُلُقُ تغيراً تدريجياً بسبب تجربة انجرار مضرة من داعيه، أو بسبب خوف عاقبة سيئة من جرائه بتحذير من هو قدوة عنده؛ لاعتقاد نصحه، أو لخوف عقابه، وأول ذلك هو المواعظ الدينية. ١٧٢/١٩

٨ـ **ومثلت حال الشعراء بحال الهائمين في أودية كثيرة مختلفة؛** لأن الشعراء يقولون في فنون من الشعر من هجاء واعتداء على أعراض الناس، ومن نسيب وتشبيب بالنساء، ومدح من يمدحونه؛ رغبة في إعطائه وإن كان لا يستحق المدح، وذم من يمنعهم وإن كان من أهل الفضل، وربما ذموا من كانوا يمدحونه، ومدحوا من سبق لهم ذمه. ٢٠٩/١٩

٩ـ **وشفع مذمتهم هذه بمذمة الكذب** فقال: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ والعرب يتمادحون بالصدق، ويعيرون بالكذب، والشاعر يقول ما لا يعتقد، وما يخالف الواقع حتى قيل: أحسن الشعر أكذبه.

والكذب مذموم في الدين الإسلامي؛ فإن كان الشعر كذباً لا قرينة على مراد صاحبه فهو قبيح، وإن كان عليه قرينة كان كذباً معتذراً عنه؛ فكان غير محمود.

وفي هذا إبداء للبون الشاسع بين حال الشعراء وحال النبيﷺ الذي كان لا يقول إلا حقاً، ولا يصانع ولا يأتي بما يضلل الأفهام.

ومن اللطائف أن الفرزدق أنشد عند سليمان بن عبد الملك قوله:

فبتن بجانبيَّ مصرعات ... وبت أفض أغلاق الختام

فقال سليمان: قد وجب عليك الحد، فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني

الحد بقوله: ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴾.

وروي أن النعمان بن عدي بن نضلة كان عاملاً لعمر بن الخطاب فقال شعراً:

من مبلغ الحسناء أن حليلها بميسان يسقى في زجاج وحنتم[1]

إلى أن قال:

لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق[2] **المتهدم**

فبلغ ذلك عمر، فأرسل إليه بالقدوم عليه وقال له: أي والله إني ليسوءني ذلك وقد وجب عليك الحد.

فقال: يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئاً مما قلت، وإنما كان فضلة من القول وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴾.

فقال له عمر: «أما عذرك فقد درأ عنك الحد، ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً وقد قُلْتَ ما قُلْتَ». ١٩/١٠٩ـ٢١٠

١٠ ـ وقد كُني باتباع الغاوين إياهم عن كونهم غاوين، وأفيد بتفظيع تمثيلهم بالإبل الهائمة تشويه حالتهم، وأن ذلك من أجل الشعر كما يؤذن به إناطة الخبر بالمشتق، **فاقتضى ذلك أن الشعر منظور إليه في الدين بعين الغض منه**، واستثناء ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ الخ... من عموم الشعراء، أي من حكم ذمهم.

---

١ ـ هكذا ورد البيت في الأصل، وكأن فيه نقصَ حرف في الشطر الأول؛ فيكون من بحر الكامل، ويكون الشطر الثاني من الطويل، ولعل الصواب (فمن مبلغ الحسناء....).

ويُروى البيت: ألا هل أتى الحسناء...

فيكون الشطران من بحر الطويل. (م)

٢ ـ الجوسق: القصر، كان أهل البطالة والخلاعة يأوون إلى القصور المتروكة.

وبهذا الاستثناء تعين أن المذمومين هم شعراء المشركين الذين شغلهم الشعر عن سماع القرآن، والدخول في الإسلام.

ومعنى: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ أي كان إقبالهم على القرآن والعبادة أكثر من إقبالهم على الشعر.

﴿وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾: وهم من أسلموا من الشعراء وقالوا: الشعر في هجاء المشركين والانتصار للنبيﷺ مثل الذين أسلموا وهاجروا إلى الحبشة؛ فقد قالوا شعراً كثيراً في ذم المشركين، وكذلك من أسلموا من الأنصار كعبدالله ابن رواحة، وحسان بن ثابت، ومن أسلم من بعد من العرب مثل لبيد، وكعب ابن زهير، وسحيم عبد بني الحسحاس.

وليس ذكر المؤمنين من الشعراء بمقتضي كون بعضِ السورة مدنياً كما تقدم في الكلام على ذلك أول السورة. ١٩/ ٢١٠-٢١١

١١- وقد دلت الآية على أن للشعر حالتين: حالةً مذمومةً، وحالةً مأذونةً، فتعين أن ذمه ليس لكونه شعراً، ولكن لما حَفَّ به من معانٍ وأحوال اقتضت المذمة؛ فانفتح بالآية للشعر بابَ قبولٍ ومدحٍ؛ فحق على أهل النظر ضبط الأحوال التي تأوي إلى جانب قبوله أو إلى جانب مدحه، والتي تأوي إلى جانب رفضه.

وقد أومأ إلى الحالة الممدوحة قوله: ﴿وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾، وإلى الحالة المأذونة قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

وكيف وقد أثنى النبيﷺ على بعض الشعر مما فيه محامد الخصال واستنصتَ أصحابه لشعر كعب بن زهير مما فيه دقة صفات الرواحل الفارهة، على أنه أذن

لحسان في مهاجاة المشركين، وقال له: «**كلامك أشد عليهم من وقع النبل..**».

وقال له: «**قل ومعك روح القدس**».

وسيأتي شيء من هذا عند قوله -تعالى-: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ في سورة يس.

وأجاز عليه كما أجاز كعب بن زهير؛ فخلع عليه بردته، فتلك حالة مقبولة؛ لأنه جاء مؤمناً.

وقال أبو هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «**أصدق كلمة، أو أشعر كلمة قالتها العرب كلمة لبيد:**

ألا كل شيء ما خلا الله باطل»

وكان يستنشد شعر أمية بن أبي الصلت، لما فيه من الحكمة وقال: «**كاد أمية أن يسلم**».

وأمر حساناً بهجاء المشركين وقال له: «**قل ومعك روح القدس**».

وقال لكعب بن مالك: «**لَكَلامُك أشدُّ عليهم من وقع النبل**».

روى أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن بسنده إلى خريم بن أوس بن حارثة أنه قال: هاجرت إلى رسول الله بالمدينة مُنْصَرَفَهُ من تبوك، فسمعت العباس قال: يا رسول الله إني أريد أن امتدحك، فقال: «**قل لا يفضض الله فاك**».

فقال العباس:

من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق

الأبيات السبعة، فقال النبي ﷺ: «**لا يفضض الله فاك**».

وروى الترمذي عن أنس أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبدالله ابن

رواحة يمشي بين يديه يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله　　اليوم نضربكم على تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله　　ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر: يا ابن رواحة في حرم الله وبين يدي رسول الله تقول الشعر فقال له النبي ﷺ: «**خل عنه يا عمر؛ فإنه أسرع فيهم من نضح النبل**».

وعن الزهري أن كعب بن مالك قال: يا رسول الله ما تقول في الشعر؟

قال: «**إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل**».

ولعلي بن أبي طالب شعر كثير، وكثير منه غير صحيح النسبة إليه.

وقد بين القرطبي في تفسيره في هذه السورة وفي سورة النور القول في التفرقة بين حالي الشعر، وكذلك الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في أول كتاب دلائل الإعجاز.

ووجب أن يكون النظر في معاني الشعر وحال الشاعر، ولم يزل العلماء يعنون بشعر العرب ومن بعدهم، وفي ذلك الشعر تحبيب لفصاحة العربية وبلاغتها، وهو آيل إلى غرض شرعي من إدراك بلاغة القرآن. ١٩/٢١١-٢١٢